الفصل السادس

الفتح العربي لمصر وعصر الولاة

ليس في نيتنا أن ندرس هنا التفاصيل التاريخية لفتح مصر على يد العـــرب، فإن هذا الحدث الهام قد تناوله المؤرخون القـــدماء بالتطويـــل، وقتلـــه المؤلفـــون المعاصرون بحثاً، وقد تعرض المقريزي للكلام عن عدة أحداث تتعلق بالبدو وقعت في المنطقة قبل أن يفتح عمرو بن العاص مصر، فذكر أنه في عصر عمـــر ابـــن الخطاب، وبعد أن فتح الشام، وقبل أن يفتح العرب مصر، تفرق عرب غســـــان (وهم مجموعة من الأزد من كهلان)، وعرب جذام وعرب عاملة، فنزل فريق منهم أرض الجفار حيث أقطعهم حاكم مصر الروماني، وكانوا قد اعتنقوا النـــصرانية، تنيس (صان الحجر) وكان على رأس هؤلاء العرب رجل من بنـــي عـــامر بـــن صعصعة (من العدنانية) يقال له أبو ثور من العرب المستعربة، فلما فتحت دمياط، اصطدموا بهؤلاء العرب المتنصرة الذين بلغ عددهم حوالي ٢٠٠٠٠، والذين قاموا بمهاجمة المسلمين بمساعدة القبط والروم (البيزنطيين) وكانت بينهم عدة حـــروب آلت إلي وقوع أبي ثور في أيدي المسلمين وانهزام أصحابه.

أما عن محاربي جيش عمرو بن العاص الذين كانت غالبيتهم مـــن البـــدو القحطانيين. فقد منحوا في العاصمة الجديدة الفسطاط مساحات من الأرض لإقامتهم وهي-"الخطط"- وقد اختارت بعض القبائل البدوية سكن الجيزة وكانت لهـــم فيهـــا خطط وأرسلت حامية منهم إلي الإسكندرية.

لكن كيف يمكننا أن نقدر عدد هذه النواة الأولي التي نـــشأت علـــى أرض مصر ؟ وفق تقديرات ابن عبد الحكم فإن هذا العدد بلغ حوالي (١٢٠٠٠) رجـــل، ولكن تعوزنا الوسائل والأدلة لكي نتحقق من صحة هذا العدد.

ولم يكتف عمرو بن العاص بإنزال هذه الجماعات الضخمة من الرجال.

ولكنه عمل على تنظيمها؛ فعين على رأس كل قبيلة شخصين مختصين بضبط أحوالها وتمثيلها وهما : العريف[1] والمحرّس، كما وضع عمرو التدوين، حيث تم تسجيل كل قبيلة وكانت القبائل تدون ابتداء بقرابة الرسول صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب، وبذا أمكن حصر كل قبيلة وتسجيلها مع رفع أنسابها وأصولها في نفس الوقت.

ونود أن نشير إلى أن هذا التدوين الأول قد تلته ثلاثة تدوينات أخرى : كان الثاني في عصر قرة بن شريك(٩٠هـ)، والثالث جاء بعده بتسعة أعوام في أيام عمر بن عبد العزيز(٩٩هـ) ، والأخير تم وضعه في ولاية بشر بن صفوان عام (١٠١)هـ، ومن الجائز أن تكون هذه التدوينات قد عملت من أجل ضرورة التعرف على مجموعات البدو التي ما فَتِئَتْ تزداد وتكبر على أرض مصر، وهل لنا أن ذكر هنا النصيحة الرشيدة التي أعطاها عمرو بن العاص لرجاله، وهي النصيحة التي ربما لم يتبعوها بحذافيرها، عندما رآهم يقيمون على أرض مصر الطيبة والغنية :"إياكم وكثرة العيال"، ولا ننس أن العوامل الأخرى لتكاثرهم في مصر ترجع إلى توافدهم إليها بناء على استدعاء أهلهم لهم؛ ليشاركوا في هذه الغنيمة ويستفيدوا من رخاء مصر وثرواتها، أو لرغبة الولاة في استقدام قبيلتهم وعشيرتهم ليكونوا لهم بمثابة العزوة، وحسبنا أن نثبت هنا أنه بعد مرور عشرين عاماً من الفتح العربي، فإن عدد من سجلوا بديوان مصر قد بلغ (٤٠٠٠٠) عربيٍّ محارب.

وفي الوقت نفسه، كان في الفسطاط رجل يدور صباح كل يوم على القبائل يسألها"هل وُلِدَ لكم وَلَدٌ؟ هل قدم عليكم زائرٌ؟ وكان عليه تسجيل المواليد والقادمين لينقلها إلى سجلات الديوان ليحصل كل منهم على العطاء الذي كان لهم. إن وجود

---

[1] العريف: القائد والمتولي الأمر.

مثل هذا المراقب المتنقل لمؤشر هام على الأهمية التي كان الولاة يولونها لـسكان البدو الموجودين في مصر بهدف مراجعة ازديادهم وتحركاتهم.

والواقع أن البدو الذين أنزلوا رسمياً في خطَطهم لم يفقدوا مع هـذا صـفة الرحل فقد حرم عليهم الخليفة عمر ممارسة الزراعة، وقد نفذ عمرو بن العـاص هذا الأمر بكل دقة، ولكن هؤلاء البدو كانوا ملاك خيول وأغنام، وكان على عمرو ابن العاص أن يجد الوسيلة – مهما كان الأمر – للمحافظة على صـحة الرجـال والحيوانات تحت هذه الظروف التي استجدت في حياتهم، فكان أن أصدر الارتباع؛ وهو نوع من الانتجاع الربيعي الذي يتيح للمحاربين من جيشه التنقل فـي الـبلاد تاركين للخيل والقطعان الحرية، ففي الوقت الذي كانوا هم أنفسهم يقومون بالقنص وشرب اللبن، كان على المصريين تقديمه إليهم وكان موسم الارتباع يبدأ في نهاية الشتاء، وهو ما يمكن أن نستخلصه من الخطبة التي ألقاها عمرو في هذه المناسبة وكان موسم الارتباع هذا يستمر حوالي ثلاثة شهور، وينتهي ببداية فصل الـصيف ومنذ البداية كان النظام يديره وينفذه الوالي، فقد كانت القبائل تتسلم من الوالي الأمر الكتابي للقيام بارتباعها في منطقة معينة، مع ذكر كميات اللبن التـي كـان علـى المصريين تقديمها لهؤلاء البدو. ونضيف هنا القبائل كان لها مطلق الحريـة فـي اختيار المنطقة التي يرغبون في انتجاعها أثناء الارتباع وما عليهم سوى اعتمادها من الوالي وتسجيلها بالأمر الكتابي. وهكذا البدو في الانتشار في الأرياف والقرى، وبذلك أصبح وجود البدو في مصر لا يقتصر على المناطق العمرانية فحسب كمـا بدأ، ولكنه أصبح كاملاً بفضل الارتباع وفقاً لنظرية بقع الزيت وذلك بأن الارتباع كان يتحدد كل عام، كما أن مناطق المرتبعات التي كانت تذهب إليها القبائل خلال هذا الموسم قد أضحت في وقت لاحق بمثابة مكان لإقامتهم شبه المستديمة بعـد أن غادروا الفسطاط نهائياً، وهذا ما حدث مثلاً بالنسبة لبني مُدلِج وحلفائهم الذين نزلوا

في خربتا[1]، وبالنسبة لبني خشين وفريق من بني لخم وجذام، الذين توجهوا إلـــى تخوم صان وأبليل[2] وطرابية في الحوف الشرقي.

ومع أن الارتباع كان في مجموعه فرصة سانحة للبدو لكي يتصلوا بأهالي البلاد وأن يقيموا علاقات مختلفة، فلابد من أن نوضح كذلك أنه قد حدث في عـــدة مناسبات إجلاء السكان المصريين بالقوة ليتركوا مكانهم للبدو مما ألحـــق بهـــؤلاء السكان أضراراً تولد عنها اشتباكات محتومة مع البدو.

والآن وبعد أن تم لهؤلاء اختيار مناطق نزولهم في مصر، فما هي العلاقات التي كانت تربطهم بالسلطة، وإلى أي حد شارك البدو في الأحداث السياسية للعالم الإسلامي؟

ولا بأس من أن نذكر بادئ ذي بدء أن الولاة الذين حكموا مـــصر لحـــساب الخلفاء، كانوا كلهم عرباً حتى تاريخ ولاية عنبسة بن إسحاق (٢٣٨هـــ - ٨٥٢م)، الذي كان آخر والٍ عربي يحكم مصر لحساب العباسيين، ثم جاء بعـــده ولاة مـــن أصل غير عربي، فارسي أولاً ثم تركي بعد ذلك وهذا يعنـــي أنـــه وحتـــى عـــام (٢٣٨)هـــ لم يكن البدو يحكمهم فقط رجل من بينهم ينتمي إلى نفس أصلهم، ولكنهم كانوا كذلك يزدادون عدداً عند وصول كل والٍ جديد والذي كان يصحب معه نفرا من أهله وقبيلته، فكان يرافقه جموع منهم تضاف إلي جموعهم الموجودة في مصر فعلاً.

وكان هؤلاء الولاة الجدد يبحثون بين هذه العشيرة عـــن رجـــال يمكـــنهم الاعتماد عليهم ويحتاجون إليهم من أجل إدارة مصر، والمعروف أن عامل مـــصر "مسلمة بن مخلد" كان يُختار بناءً على توصية معاوية بن أبي سفيان رجالاً يتصفون

---

(١) خربتا: موضع بمصر حوالي الإسكندرية. ياقوت ٤/ ٤١٦، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) أبليل: مدينة مصرية مندرسة كانت بقرب صان الحجر، ومكانها يعرف اليوم بتل بليم. القاموس الجغرافي، القسم الأول، ص٤. ط. الهيئة المصرية للكتاب.

بالأمانة والعفة لتقليدهم المناصب الهامة من بين قبيلة الأزد لما كانت تتمتع به هذه القبيلة التي حضرت إلي مصر مع الفتح العربي من سمعة طيبة.

وقد حدث أيضا أن أصبح أحد أفراد القبيلة البدوية حاكما لمصر، ولنـذكر مثلا يزيد بن حاتم من قبيلة المهالبة، والذي حكـــم مـصر بيـــن عامـــــي (١٤٤)هـ، و(١٥٢)هـ، وكذلك ابنه الذي أصـبح حاكمـا لمـصر لمـدة عـام (١٧٤)هـ ـ (١٧٥) هـ، وكان على الأب يزيـد أن يقمـع ثـورات العلـويين والأحباش والأقباط والخوارج.

وأخيراً إذا كان دخول هؤلاء البدو إلي مصر إنما هو بـصفتهم محـاربين قدموا لفتحها، فقد كان من الطبيعي إذن أن نري بطونا مـن قبائـل الأزد والأوس والخزرج في جيش معاوية الذي سار عام (٣٤)هـ لفتح إفريقية، وكانت مصر في عصر الخليفة عثمان بن عفان تضم عناصر موالية للخليفة وآخرين وقفوا ضـده، فإذا كانت قبائل مثل كنانة، وبني مدلج التي كانت تنزل بخربتا من أرض مـصر، وهي من القبائل الموالية لسيدنا عثمان، فإن عدداً كبيراً آخر من البدو كانوا غيـر موالين له بدليل أنه قد حدث في عام (٣٥)هـ أن سافر الوالي عبد الله بـن أبـي السرح إلي المدينة لمقابلة الخليفة عثمان، وترك عقبة بن عامر الجهني كنائب عنه فقام محمد بن أبي حذيفة بطرد عقبة نائب ابن أبي السرح، ودعا الناس إلي خلـع عثمان ولم يكتف ابن أبي حذيفة بذلك، بل أرسل كذلك مائة محارب بقيادة ابن ورقة كما سافر من مصر عمرو بن الحمق، وهو من قبيلة خزاعة وهي بطن من الأزد، للمساعدة في قتل الخليفة عثمان، وقد نجد الآن تفسيراً للاتهام الموجه من السيوطي الذي يؤكد أن الخليفة عثمان قد قتل "بيد المصريين"، أي بأيدٍ عربية قادمـة مـن مصر، أو بعبارة أدق: على يد رجل من كندة.

إن الأحداث التي هزت الأمة الإسلامية بعد مقتل عثمـان، وحتـى نهايـة العصر الأموي، لم تؤثر على بدو مصر إلا في القليل، ولم يكن تأثيرها محـسوسا إلا في تفاقم المعارك بين مختلف القبائل البدوية، وهي المعارك التي كان الخلفـاء

ينحازون فيها إما إلي القحطانيين وإما إلي العدنانيين، وترجيح أحد الفريقين علـى الآخر، وجاء الخليفة هشام (١٠٥هـ ـ ١٢٥ هـ) فعين عبيد الله بـن الحبحـاب القيسي كعامل للخراج في مصر، وهي الوظيفة التي شغلها ابن الحبحـاب طـوال عشرة أعوام (من ١٠٥ إلي ١١٥ هـ) ولقد كان لهذا التعيين نتائج هامة بالنـسبة لبدو مصر، لأن ابن الحبحاب اتخذ من التدابير أصلحها لكي يرفع من عائد الخراج في مصر، فقام بتعداد السكان وحصر الماشية والأغنام، ومسح الأراضي المنتجـة وغير المنتجة ثم استأذن بعد ذلك من الخليفة هشام في إحضار عدة قبائل قيسية إلي مصر لأنه بعد أن أجرى تعداد السكان ثبت لديه أن عدد العدنانيين في البلاد لم يكن بالقدر الكافي، فأعطاه الخليفة الإذن شريطة أن ينزلهم في مكان غيـر الفـسطاط وعندئذ جاء عبيد الله بن الحبحاب بالقيسيين إلى مصر بين سنتى (١٠٩)هـ، وسنة (١١٤)هـ، وأسكنهم في بلبيس، حيث هي كورة ليس فيها أحد، وليس يضر أهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجاً، كما جاء في خطاب ابـن الحبحـاب إلـى الخليفة.

وبعد أن أنزل ابن الحبحاب هؤلاء البدو في بلبيس "أمرهم بالزرع ونظـر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلـى القلزم"، ونضيف هنا أن ابن الحبحاب قد تمكن كذلك من تحقيق استتباب الأمن في الوجه القبلي الذي كانت تتهدده قبائل البجة، فأرسل جيشا ضدهم واضطرهم الـى قبول الأمان، مما ضمن له فترة لا بأس بها من الهدوء فى الصعيد، ويبدو أن نزول القيسيين فى الحوف الشرقى عامة، وفى بلبيس خاصة، قد كلل بالنجاح إلى درجة أن هجرتهم إلى مصر لم تنقطع، بل زادت عندما أصبح أحد أفراد قبيلة "باهلـة"- من "قيس"- وهو حوثرة الباهلى والياً على مصر عام (١٢٨)هـ، وقد تم حـصر القيسيين فى سنة (١٥٣)هـ، فوصل عددهم إلى (٥٢٠٠) أهل بيت ما بين صغير وكبير، وقد كان هؤلاء القيسيون النازلون بالحوف الشرقى هم الذين سنراهم عـام (٨١٤)هـ يهبون لنجدة سكان "قفط" فى الصعيد فقد كانت قبائل البجة قد خالفـت

الأمان الذى فرضه عليها ابن الحبحاب، وصارت تهاجم فقط، ولما فشلت جهودهم فى استجداء مساعدة الوالي لجأوا إلى رئيس القيسيين في الحوف "حَكَم ابن النبيحي"، الذي سارع على رأس (١٠٠٠)- ألف من البدو لمحاربة البجة التي دامت طوال ثمان سنوات، وعلى صعيد آخر، فإنه يجدر بنا أن نبين النتائج التي ترتبت على إنزال القيسيين في منطقة الحوف الشرقي. لقد زرعوا المنطقة كما صدر إليهم الأمر، فعمروها واستصلحوا أراضيها زيادة على ذلك، فإن هذا الواقع الجديد قد جعل هؤلاء البدو المسلمين على اتصال مباشر مع أقباط مصر، وأن هذا الحدث- حسبما يراه المقريزي- قد كان من جرائه إسراع الفلاحين الأقباط إلي اعتناق الإسلام، كما أنه كان نقطة انطلاق انتشار الإسلام في مصر، وهو أمر لم يتم إذن حدوثه إلا بعد القرن الأول للهجرة.

ولقد ظلت مصر من جهة أخرى على هامش الأحداث التي هزت العالم الإسلامي، ولم تصلها أصداء هذه الحوادث إلا في عصر آخر الخلفاء الأمويين مروان ابن محمد (١٢٧هـ ـ ١٣٢ هـ)، فقد كانت الخلافات بين القيسيين (العدنانيين) وبين اليمنيين (القحطانيين) قد وصلت إلي ذروتها من السوء، واضطر الخليفة مروان بن محمد إلي الالتجاء إلي مصر عام (١٣٢)هـ، هرباً من العباسيين، حيث وجد بنفسه أن سكان الحوف الشرقي وأهالي الإسكندرية وحتى أهالي الصعيد وأسوان كانوا قد أصبحوا من أعوان العباسيين، فاغتاظ لذلك مروان، ويقال: إنه أمر بإحراق بعض مناطق الحوف.

ومع ذلك فقد رأينا طوال العصر العباسي، أن المنازعات والمشاكل لم تنته بين ولاة مصر وبين البدو، وخاصة مع بدو الحوف، واضطر الولاة إلي حمل السلاح ضدهم، إما لقمع المشاحنات التي كانت تنشب بين بعضهم البعض لأسباب قبلية، وهي مشاحنات تكرر وقوعها بين القبائل القحطانية والأخرى العدنانية ويستعر أوارها تلقائيًا بمجرد وصول وال جديد، وإما لمنع البدو من القيام بأعمال النهب وقطع الطرق كما حدث في أيام الوالي يحيى بن داود (١٦٢ هـ).

لقد سبق لنا أن رأينا بدو الحوف يشرعون في ممارسة الزراعة في عـصر الأمويين، وها نحن نراهم يثورون ضد الضرائب التي فرضت علـى الأراضـي المنزرعة في أيام العباسيين، وبدأت ثوراتهم من عامي ١٥٧- ١٦٨هـ في عهـد الخليفة المهدي، وكان واليه على مصر موسى بن مصعب الخثعمي، وكان قد تشدد في جباية هذه الضرائب، فتحالف قبائل الحوف من قيس ويمـن لهـذا الغـرض، ورفضت دفع الضرائب التي أصبحت تثقل كاهلهم، وثاروا ضدها، ولم يتسن إخماد ثورتهم إلا في عام ١٦٩ هـ في أيام الوالي فضل بن صالح. وعاود البدو ثوراتهم وامتنعوا عن دفع الضرائب في أيام هارون الرشيد، ففي عام ١٧٧ هـ وأثنـاء ولاية إسحاق بن سليمان الذي زاد الضرائب، ثار مزارعو الحوف : مغاصة قيس وقضاعة، ولكنهم قهروا واضطروا إلي دفع الضرائب هذا ولم يوافق أهل الحـوف في عام ١٨٦ هـ على الطريقة التي استخدمها الوالي الليث بـن الفـضل (١٨٣-١٨٦هـ) في مسح الأرض وقياسها، فثار البدو وساروا إلي الفسطاط لمحاربتـه، أخيراً وفي عام ١٩٠هـ، وعندما كان والي مصر هو الحسين بن جميل ورفـض أهالي الحوف دفع الضرائب، واتخذت ثورتهم في هذه المرة صورة النهب والسلب التي وصلت حتي قرى فلسطين، واضطر الخليفة هارون الرشيد إلى إرسال الجيش لقمعهم في عام (١٩١)هـ ونجح هذا الجيش في تهدئتهم. وفي ذلك الوقـت، كـان القبط يدخلون في الإسلام بأعداد كبيرة لكي يتفادوا الإزعاج في أملاكهم والتخلص من دفع الجزية، ولكنهم كانوا حتي بعد إسلامهم يشعرون بأنهم أقل مـن العـرب، ولذلك كانوا يبحثون عن طريقة للتشبه بهم، حتى وصل بهـم الأمـر إلـي دفـع (٦٠٠٠) دينارٍ إلي قاضي مصر عبد الرحمن العمري (١٨٥-١٩٤هـ) لكي يكتب لهم سجلاً لإثبات انتسابهم إلي العرب وسافر هؤلاء الأقباط الذين أسلموا، وهم أهل الحرس إلى بغداد للتصديق من قبل الخليفة على هذا السجل الذي يمنحهم الانتساب إلي قضاعة، وقد وصل الأمر إلي حد أن ساعدهم في ذلك بعض أهـالي الحـوف الشرقي.

ويقول الكندي: إن هناك مجموعات كبيرة من لخم وجذام قد ظهـرت فـي الحوف الشرقي وأصبحوا سادة القحطانيين، وصاروا بذلك منافسين أشداء للعدنانيين في تلك المنطقة، وقد غادرت جماعات من لخم وجـذام الحـوف وعـدت الـدلتا وتوجهت إلي الإسكندرية، وبذلك أصبحت لخم من أهل القبائل في هذه المدينة إلي درجة أن الأسبان الذين هبطوا على الإسكندرية عام (١٩٩)هـ، (وهم جماعة من الأندلسيين بلغ عددهم نحو ١٥٠٠٠ نسمة) اضطروا إلي التحالف مع قبائـل لخـم التي كانت أقوى وأشد من في البلد، ولما دب الخلاف بين الطرفين دارت المعارك بين الأسبان ولخم، وهزمت فيها لخم، وصار الأسبان هم السادة في الإسكندرية، ثم جاء بطن من بني لخم وهم بنو مدلج فهاجموا الأسبان من جديد ولكنهم اضـطروا كذلك للفرار والجلاء عن المدينة وأطرافها؛ ولكنهم حصلوا بعد ذلك على موافقـة الأسبان لكي يعودوا إلى أماكنهم، ويظهر بنو مدلج على المسرح عام (٢٠٣)هـ، وعندما رفع القبط راية العصيان، وانضم إليهم في ذلك بنو مدلج الـذين وصـل عددهم إلى حوالي (٢٠٠٠٠٠)؛ ولكنهم انهزموا وانكسروا.

وكان للنزاع على السلطة الذي حدث في بغداد بين الأمين والمأمون، صداه بين بدو مصر، ومثلت جذام ولخم دوراً رئيسيًّا فيه، فقد كانتا في أول الأمـر مـن أنصار المأمون وأصبح في مصر فرقتان : فرقة حزب الأمين وفرقة حزب أخيـه المأمون ثم عندما كتب محمد الأمين إلي رؤساء الحوف بولاية ربيعة بـن قـيس الجرشي- وكان رئيس قيس الحوف- إنقاد أهل الحوف كلهم معه يمنهـا وقيـسها وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون، وبذلك قويت قيس- وكان علمها أحمر- على اليمنية التي كان علمها أبيض.

وفي تلك الأثناء لم تنقطع الثورات التي أحدثتها جباية الضرائب المفروضة على البدو المزارعين ، ففي عام (٢١٤)هـ قامت الثورة في الحوف، ولم يتـسن قمعها إلا في عام (٢١٥)هـ، وبواسطة جيش مكون من الأتراك وبقيـادة والـي مصر المعتصم عيسى بن يزيد الجلودي وكان من نتيجة انهـزام البـدو أن قتـل

رئيساهما عبد السلام وابن الحليس. وعادت القلاقل للظهور مرة أخري في السنة التالية سنة (٢١٦)هـ، عندما ثارت قبيلة بني مدلج وانهزمت على يد القائد التركي أفشين وفي نفس هذه السنة، وفي ولاية عيسي بن منصور اضطر الخليفة المأمون أن يأتي بنفسه إلي مصر لإعادة النظام إلى البلاد التي اجتاحتها الثورة التي ضمت بالإضافة إلي البدو عنصراً آخر هو القبط الذين أساء إليهم الوالي، وعندما حضر الخليفة أخضع الثوار، وأمر- بالنسبة للأقباط- أن يقتل رجالهم وأن تباع نساؤهم وأطفالهم، ويقول المقريزي: إنه منذ تلك اللحظة انهزمت القبط وذلت في مصر كلها بينما ساد المسلمون، ولم تستمر المعاملة المميزة التي كان العرب يتمتعون بها في مصر، فقد جاء الخليفة المعتصم وأبطل دفع العطاء الذي كان يصرف إليهم من الديوان، وكانت أم الخليفة المعتصم تركية الأصل، وهو الذي زاد من عدد الجنود الترك في جيشه، كما أصدر أمره إلي واليه في مصر كيدر بن نصر بن عبد الله (٢١٧هـ - ٢١٩هـ) برفع أسماء العرب من سجلات ديوان مصر، وإلغاء عطائهم، وكان من المتوقع بطبيعة الحال أن تظهر القلاقل والمشاغبات نتيجة لذلك، فقد قام يحيى بن الوزير الجروى، ومعه البدو من جذام ولخم، وأعلنوا عصيانهم، ولكن المظفر بن الوالي كيدر تمكن من القبض على الجروي بالقرب من تنِّيس عام ٢١٩هـ، ومنذ ذلك التاريخ تفرق الثوار من لخم وجذام، ومن جهة أخري، فقد اجتذبت مناجم الذهب في الصحراء الشرقية عدة قبائل بدوية، من تلك التي هرعت نحو وادي العلاقي، ولكن قبائل البجة التي اعتادت أن تنزل في صحراوات هذه المنطقة لم تكن تسمح بحضور قادمين جدد، وكانت تطاردهم وتحول بينهم وبين النزول في منطقة وادي العلاقي، ثم عمدوا كذلك إلي رفض دفع الجزية إلي والي مصر، وبدءوا في شن غاراتهم على الصعيد، ونهب القرى كما حدث في إسنا وإدفو، وبعد إلحاح من والي مصر عنبسة بن إسحاق أرسلت الخلافة في بغداد جيشا بقيادة القمي عام (٢٣٨)هـ وكان هذا الجيش مكونا في غالبيته من قبائل مضر وربيعة، وهي القبائل التي كانت البجة قد طردتها من منطقة المناجم، وأنزل

هذا الجيش الهزيمة بقبائل البجة، وعقد اتفاقاً مع زعيمهم على بابا الذي سافر بنفسه لتثبيت هذا الاتفاق إلي بغداد بصحبة القائد المنتصر، وللإعراب عن ولائه للخليفة العباسي المتوكل، وعادت البجه إلي دفع الجزية لوالي مصر، والتي كانت تتمثل في عدد من العبيد، وزرافتين، وفيلين وأشياء أخري، وعندما تم تعيين الوالي مزاحم بن خاقان عام ٢٥٣هـ لولاية مصر، كان أول عمل بدأ به حكمه هو محاربة بدو الحوف، ثم بدو البحيرة وبدو الفيوم؛ نظرا لأن مشاغبتهم قد أخلت بأمن البلاد ومنعت النظام من أن يسودها، وفي عهد هذا الوالي نفسه.

وعندما كان شنودة بطريركا للإسكندرية، وكان يقودها جابر بن الوليد المدلجي الذي انضم إليه أحد العلويين من الطالبيين، وتجمع من حولهم عدد كبير من العرب ودخلوا من الجزء الشرقي لمصر، واستولوا على بنا[1] وفرضوا الجباية في طول البلاد من بنا إلي مريوط، وكانوا إذا ما لقوا أحد أعوان السلطة أجبروه على تسليمهم ما معه من نقود، ثم يقتلونه بعد ذلك كما نهبوا الكنائس واسترقوا الرجال والنساء والأطفال، وجمعوا غنائم ضخمة دون أن يجسر أحد على مقاومتهم. وقد تشجع زعيمهم بهذه الانتصارات، فقام بصحبة أفضل محاربيه بضرب الحصار حول الإسكندرية ولكنهم لم يستطيعوا دخولها والاستيلاء عليها لنقصٍ في المعدات، فاكتفوا بحصار البلاد ومنع دخول المؤن سواء من جانب النهر أو من جانب البحيرة؛ كما شقوا القنوات لتحويل المياه حتى لا يحصل أهالي الإسكندرية على مياه الشرب سوى من مياه الآبار وما تبقى لديهم بصهاريج المياه وندرْة المؤن في المدينة ولم يكن من المستطاع ابتياعها بأي ثمن، حتى أصبح من المتعذر إقامة القداس بالكنائس لنقص الخبز والنبيذ، ولكن سكان رشيد جاءوا لنجدة أهالي الإسكندرية، فحملوا المراكب بأنواع مختلفة من المواد الغذائية، ونجحوا في الدخول إلى الإسكندرية حيث تمكنوا من فك هذه الأزمة، ولكن الحصار ظل

---

[1] بنا: بلدة قديمة بمصر تضاف إليها كورة من فتوح عمير بن وهب. ياقوت، ٥٨٧/١.

مستمراً، فبنى الحاكم وأهالي الإسكندرية جداراً يحيط بالمدينة ليحتموا من غـــارات البدو، فكون والي مصر مزاحم جيشاً جديداً من الترك المحاربين الشجعان تحـــت رئاسة قائد محنَّك، فهاجم بني مدلج وهزمهم وقضى عليهم تماماً، ومـــن اســـتطاع منهم الفرار من هذه المذبحة فقد احتموا بالجبال في الصعيد، وأخذت مـــنهم كـــل غنائمهم التي كانوا قد حصلوا عليها، واستعيدت كل المدن التي كانوا قد اســـتولوا عليها.